أَلفَهْمُ المُعَاصِرُ للْقُرْآن
في ضَوْءِ مَنْهَجِ التَّفسِيرِ المَوْضُوعِيِّ

أحمد جاسم ثاني الركابي
كلية التربية - جامعة البصرة

فحوى البحث

يحاول البحث التعرف على الفهم المعاصر للقرآن الكريم عَبْر فهم مقاصده و الكشف عن أهدافه، و ذلك من خلال أحد مناهج التفسير الحديثة التي سارت على هذا الفهم و ترجمتِهِ على ارض الواقع، و هو منهج التفسير الموضوعي الذي أقام صَرْحهُ السيد الشهيد محمد باقر الصدرقدس سره و طبَّقه في دراساته القرآنية التي عالجتْ كثيراً من الحاجات المعاصرة، انطلاقاً من أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام، والإسلام يقود الحياة ويعالج قضايا الانسان المعاصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمدٍ وآل بيته الطيبين الطاهرين...

تميزت التفاسير الحديثة بالواقعية والشعور بالمتطلبات الراهنة فتجاوزت المعاني المجردة، واتجهت نحو الواقع لتلامس أحواله وظروفه الآنية، وتستنطق القرآن الكريم في شأنها؛ لأن القرآن دستور الحياة، وفيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة.

فهم القرآن

الفهم لغةً: ((معرفتك الشيء بالقلب... وفهمتُ الشيء: عقلتُه وعرفته))[1]، أو هو: ((حسنُ تصور المعنى. وجودة استعداد الذهن للاستنباط))[2].

ويُراد من فهم القرآن: العلم بمعاني آيات القرآن الكريم ومقاصدها وأغراضها، وما يتعلق بها من أهداف، بغض النظر عن درجة الإدراك لتلك الأمور، فيصدق لمن يفهم بعض آيات القرآن بشكل جزئي -وإن اقتصر على ظواهر الألفاظ -أن له فهماً في القرآن الكريم، ويصدق أيضاً على من له فهم أكبر من ذلك أن له فهماً في القرآن الكريم[3].

وقد حظيت مسألة فهم القرآن بعناية المفسرين والباحثين في الدراسات القرآنية على اختلاف توجهاتهم الفكرية والعقائدية، ومنذ الصدر الأول للإسلام وإلى يومنا هذا[4]، وفي هذا الصدد يقول السيد الخوئي: ((وجدير بالمسلم الصحيح، بل بكل مفكر من البشر أن يصرف عنايته إلى فهم القرآن، واستيضاح أسراره، واقتباس أنواره، لأنه الكتاب الذي يضمن إصلاح البشر، ويتكفل بسعادتهم وإسعادهم))[5].

(١) لسان العرب، ابن منظور، (فهم): ١٢/ ٤٥٩.

(٢) المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، (فهمه): ٢/ ٧٠٤.

(٣) ينظر: فهم القرآن الكريم، (بحث) سعيد حماد، مجلة مآب، س٢، ع٧، حزيران/ ٢٠٠٨: ٦٤.

(٤) ينظر: منهج السيد محمد باقر الصدر في فهم القرآن، أحمد الأزرقي: ١٨٣.

(٥) البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي: ١١.

وينبغي لمن يريد فهم القرآن الكريم أن يعلم أن النظر إلى الجملة القرآنية أو المقطع القرآني وحده لا يكفي، بل كثيراً ما يحتاج فهم هذا المقطع أو تلك الجملة إلى مقارنة بغيره مما جاء في القرآن، فضلاً عن الحاجة إلى تحديد الظروف والملابسات[٦]، وهو ما يُعبر عنه بالسياق القرآني بنوعيه؛ اللغوي والحالي، كما ينبغي أن يكون فهم القرآن متصلاً بالواقع المُعاش، وإلا فهو فهم ميت[٧].

ولما أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليهدي الناس ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد جعل للإنسان القدرة على فهمه واستخراج معارفه، ولكن بتعدد مراتب الفهم، فالمعصوم يفهمه الفهم الحقيقي الذي لا لبس فيه، وأما عامة الناس فيفهمونه على قدر استيعابهم[٨]، يقول السيد محمد باقر الصدر: ((إن منطق الشريعة الخالدة الكاملة يقتضي تأمين الوصول إلى فهم القرآن ومعرفة تفسيره وفقه أحكامه، بصفته المصدر الأساس لهذه الشريعة الخالدة وإن تحكيم القرآن في البلاد والعباد هو ما أمرنا الله تعالى به))[٩].

بين الفهم والتفسير:

يُعد فهم القرآن مقدمة لتفسيره، ومن لا يمتلك فهماً للقرآن لا يمكنه أن يفسره، فالتفسير نتيجة تطبيقية لبعض مراتب الفهم لدى المفسر[١٠]، وبناءً على ذلك يكون الفهم أعم من التفسير؛ وذلك لأن الفهم من دون تفسير أمر ممكن بإدراك معاني القرآن ومقاصده فحسب، بيد أنه لا يمكن تفسيره من دون فهمه[١١].

ومن الشروط الواجب توافرها فيمن يتصدى للتفسير أن يفهم القرآن ويفسره بذهنية إسلامية، فينظر إلى القرآن على أنه كتاب إلهي، أُنزل للهداية وبناء

(٦) ينظر: علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: ٢٣٦.
(٧) ينظر: التدبر في القرآن، السيد محمد رضا الشيرازي: ١/ ٩.
(٨) ينظر: منهج السيد محمد باقر الصدر في فهم القرآن: ١٨٣.
(٩) نشأة التشيع والشيعة، السيد محمد باقر الصدر: ١٣٠.
(١٠) ينظر: فهم القرآن الكريم: ٦٤.
(١١) ينظر: منهج السيد محمد باقر الصدر في فهم القرآن: ١٨٣.

الإنسانية، وهذا الأساس هو الطريق الوحيد لإمكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بشكل صحيح[١٢]، و((أن يكون لدى المفسر تصور عام عن القرآن وكيفية نزوله والأسلوب الذي اتبعه في (عملية التغيير) ومنهجه في طرح القضايا والأحداث من قبيل أن يعرف المفسر (إجمالاً) أن في القرآن الكريم ناسخاً ومنسوخاً، فإن هذه الفكرة ذات أثر كبير في فهم القرآن وإمكانية تفسير بعضه ببعض))[١٣]، وهو ما يُعبر عنه بروح القرآن الكريم العامة، التي تمثل أصلاً في فهم القرآن وتفاصيله، فضلاً عن أنها تمثل قرينةً على فهم هذا النص أو ذاك من القرآن الكريم[١٤]، على أن يكون الإطار العام لفهم القرآن مستنداً إلى خلفية عقائدية صحيحة ومستنبطة من القرآن الكريم نفسه، وأن يفهم المفسر أن القرآن الكريم هو وحي إلهي وله ذاك الهدف المُشخَّص؛ وهو هدف التغيير الاجتماعي الجذري[١٥].

ويُراد من المعاصرة في فهم القرآن وتفسيره: ((ضرورة التوفر على أسلوب تفسيري جديد يُراعي الذهنية الموجودة ومستوى الثقافة العامة في مجتمعاتنا، ويأخذ قضايا الواقع بنظر الاعتبار))[١٦].

والفهم المعاصر للقرآن لابد أن يخضع لمقاصد القرآن أو ما يُسمى بالهدف من نزول القرآن، لما له من أهمية في استنطاق القرآن والوصول إلى مقاصده التغييرية التي تحاكي الواقع الاجتماعي المُعاش، وتعالج مشكلاته المستجدة.

مقاصد النزول أو أهداف النزول:

يمكن أن نعرِّف مقاصد نزول القرآن بأنها الغايات والأهداف التي نزل من أجلها القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وما انطوت عليه آياته وقصصه من دروس وعِبَر، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، عبر أسلوب الهداية والتغيير.

(١٢) ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٣٠٩.
(١٣) تفسير سورة الحمد، السيد محمد باقر الحكيم: ٣٧.
(١٤) ينظر: المصدر نفسه: ١١٠.
(١٥) ينظر: المصدر نفسه: ١١٤.
(١٦) المعاصرة القرآنية (بحث)، جواد علي كسار، كتاب دراسات قرآنية الصادر عن مجلة المنهاج: ١٨٦.

ويعد موضوع مقاصد النزول من أهم الموضوعات القرآنية والبحوث التفسيرية التي يمكن للباحث أن يقف عندها كما يقف عند بحث التوحيد أو النبوة أو السنن التاريخية في القرآن... إلخ؛ وذلك لأن القرآن تحدّث عن القصد من نزوله من خلال آياته كما تحدث عن الموضوعات الأخرى(١٧).

ولتشخيص مقاصد نزول القرآن لابد من الرجوع إلى القرآن نفسه، واستعراض الآيات التي تفسر نزوله، فهناك مجموعة كبيرة من الآيات الكريمة والظواهر القرآنية التي من شأنها أن تلقي الضوء على الهدف من نزول القرآن، ولكن هذه الآيات قد تبدو وكأنها تنطوي على أهداف متعددة أومختلفة، ومن جملة ما ذكره القرآن الكريم منها ما يأتي(١٨):

١. الإنذار والتذكير: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٩].

٢. ضرب الأمثال والعبر والدروس: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[سورة الإسراء: ٨٩].

٣. إقامة الحجة والبرهان والمعجزة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء: ١٧٤].

٤. بيان تفاصيل الشريعة الإسلامية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة النحل: ٨٩].

٥. حل الاختلاف، والتفريق بين الحق والباطل: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة النحل: ٦٤].

٦. تصديق الرسالات السابقة وتكميلها: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة: ٤٨].

٧. بيان الفصول التاريخية لتطور حركة الإنسان وقصص الأنبياء: ﴿ إِنَّآ

(١٧) ينظر: تفسير سورة الحمد: ٦٦.
(١٨) ينظر: علوم القرآن: ٥٠ –٥٣، وتفسير سورة الحمد: ٧٠ –٧٤.

﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢ -٣].

٨. إعطاء التصور الكامل عن الكون والحياة، كما في الآيات التي تناولت أصل مسيرة الإنسان، وعلاقتها بالمبدأ، وبداية هذه المسيرة ونهايتها، وكيف يتكامل الإنسان فيها، وكيف يتسافل، الأمر الذي قد يكشف عن أن بيان هذه الحقائق هو الهدف من نزول القرآن.

٩. إنزال الهداية والرحمة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

وفي ضوء استعراض هذه الأهداف الثانوية والمقارنة فيما بينها، يمكن أن يتحدد الهدف المركزي والأساس الذي نزل القرآن من أجل تحقيقه، وأسهمت الأهداف الأخرى بشكل أو بآخر في تحقيقه، وهذا الهدف المركزي هو (تغيير الناس) وإخراجهم من الظلمات إلى النور[١٩]، ولعل أروع ثنائية انطوت عليها عشرات الآيات القرآنية هي مصطلحا «الظلمات والنور»، فالتعبير القرآني يتميز باستيعاب وعمومية يتمكن بهما من اجتياز كل زمان ومكان، ويصلح ليكون أعظم آلية لتقويم سلوك الإنسان وحركة التاريخ[٢٠].

وقد سعت الظاهرة القرآنية بوجودها إلى تحقيق هذا الهدف المركزي، إذ أنه يفسر لنا كل آية في القرآن الكريم مهما كان مضمونها ومحتواها وصيغتها[٢١].

التغيير هو الهدف المركزي للقرآن

التغيير لغةً: هو إحداث شيء لم يكن من قبل بالصورة نفسها التي أصبح عليها بعد التغيير الذي طرأ عليه، فمثلاً تقول:

(١٩) ينظر: تفسير سورة الحمد: ٧٥.

(٢٠) ينظر: فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية، نجف علي ميرزائي: ١٤٨.

(٢١) ينظر: علوم القرآن: ٥٢.

غيَّرتُ الشيء؛ بمعنى بدَّلت به غيره[٢٢]. ((والتغيير يقال على وجهين، أحدهما: لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال غيرت داري إذا بنيتها بناءً غير الذي كان. والثاني: لتبديله بغيره نحو غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما...))[٢٣].

أما في الاصطلاح القرآني؛ فهو ((تغيير الحالة التي عليها الناس تغييراً جذرياً، بحيث يبدل حالتهم من الظلمات إلى النور))[٢٤].

فالمعنى القرآني لمفردة (التغيير): هو جعل شيء سوى حالته الأولية وهو الأصل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٥٣]، فان الرحمة والنعمة واللطف إنما تنزل من الله تعالى بحسب اقتضاء المحل ومقدار السعة فيه، وعلى وفق الاستعداد والقابلية[٢٥]. ((ولا يخفى أن البناء الاجتماعي بدون إجراء التغيير الداخلي في نفوس وعادات الأفراد، يصبح عبثياً كالبناء بدون قاعدة))[٢٦].

وهذا الهدف المركزي يكشف عنه السياق القرآني، فإن مراعاة السياق وترابط الآيات بعضها ببعضها الآخر والارتباط بين بعض الفصول والمقاطع في السورة الواحدة، من شأنه أن يؤدي إلى معرفة الاهداف القرآنية والمقاصد الربانية لنزول الآيات في عملية التغيير الاجتماعي، والإخراج من الظلمات إلى النور[٢٧]. وهو ما يقوم به منهج التفسير الموضوعي أو بحث الوحدة الموضوعية ولذلك يسمى بالمنهج الكشفي[٢٨].

(٢٢) ينظر: لسان العرب، (غير): ٦/ ٧٢٧، والمعجم الوسيط، (غَارَهُ): ٢/ ٦٦٨.

(٢٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (غير): ٣٦٨.

(٢٤) تفسير سورة الحديد، السيد محمد باقر الحكيم: ١٠٦.

(٢٥) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن المصطفوي: ٧/ ٢٩٥.

(٢٦) دور العقيدة في بناء الإنسان، مركز الرسالة: ٦٠.

(٢٧) ينظر: تفسير سورة الحمد: ٧.

(٢٨) ينظر: أطروحة التفسير الموضوعي عند السيد محمد باقر الصدر، أحمد عبد الله أبو زيد: ٣٣.

دور الأهداف الثانوية في تحقيق الهدف المركزي

وفي ضوء تفسير الهدف الرئيس للقرآن يمكن فهم دور الأهداف الثانوية الأخرى، وإسهامها في تحقيق الهدف المركزي، وموقعها من هذا الهدف[٢٩].

فإن (الإنذار والتذكير) لا يمكن أن يكون هو الهدف الرئيس لنزول القرآن، لأنه ذُكِر في آيات من القرآن الكريم في سياق مجموعة أهداف أخرى[٣٠]، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[سورة البقرة: ٢١٣]، فالإنذار هنا ((ليس هو الهدف الرئيس والوحيد، بل هو واحد من الأساليب المهمة الأساسية والمساعدة في تحقيق هدف النزول الرئيس، وهو هدف تغيير الجماعة البشرية تغييراً جذرياً، وهو وضعهم على السراط المستقيم))[٣١].

وكذلك هدف (ضَرْبِ الأمثال)، وهدف (إقامة الحجة والبرهان)، لا يكونان هدفين رئيسين؛ لأنهما يدخلان ضمن هدف (الإنذار)، ويشكلان أفضل وسيلة له، ومثلهما الأهداف الأخرى، فكل منها لا يمكنها أن تكون هدفاً رئيساً بل جاءت لخدمة الهدف الرئيس ومرتبطة به، ومن ذلك يتبين أن كل الأهداف الأخرى -على أهميتها- إنما هي أهداف فرعية بالنسبة إلى الهدف الرئيس وتسهم في تحقيقه بشكل كبير، وهو ما حصل بالفعل في تاريخ القرآن[٣٢].

منهج التفسير الموضوعي والفهم المعاصر

لم يكن القرآن الكريم محدداً بعصر واحد، وإنما هو كتاب هداية تجاوز حدود الزمان والمكان، وقد نجحت

(٢٩) ينظر: علوم القرآن: ٥٩.
(٣٠) ينظر: تفسير سورة الحمد: ٨٥.
(٣١) المصدر نفسه: ٨٥ -٨٦.
(٣٢) ينظر: علوم القرآن: ٦٣.

التفاسير المعاصرة[٣٣] في مخاطبة أبناء عصرها باللغة التي تناسب الأغلبية الساحقة منهم، إذ لاينكر أن التفاسير القديمة تكاد تكون مقصورة على أصحاب التخصص لما اشتملت عليه من بحوث معقدة في اللغة والفقه والكلام وغيرها من العلوم التي يتعسّر فهمها على غير المتخصصين، ومن المزايا المهمة في التفسير الناجح هي مخاطبة عموم الأمة لاخصوص طبقة معينة فيها، وهذه المزية تُعد من أهم مزايا التفاسير الحديثة[٣٤].

ومن هذه التفاسير تجربة السيد محمد باقر الصدر الذي اتبع المنهج الموضوعي في التفسير وأصّل له نظرياً، فجاءت هذه النظرية مكتملة الأدوات على يديه، ومحددة التسمية بالتفسير الموضوعي[٣٥].

والتفسير الموضوعي أو التوحيدي هو المنهج الذي ((لايتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية))[٣٦]، مستهدفاً بذلك تحديد موقف نظري للقرآن الكريم، ومن ثم للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون[٣٧].

ويُعد هذا المنهج وسيلةً ضرورية لتقديم القرآن تقديماً علمياً منهجياً للإنسان المعاصر، كما يتكفل بحاجته إلى الدين عموماً، وإلى الإسلام والقرآن خصوصاً، وفي الوقت نفسه يحقق مقاصد القرآن الأساسية[٣٨].

وقد فهم السيد الصدر القرآن في ضوء مقاصد النزول، عبر منهجه الذي ينطلق من واقع الحياة ويركّز على موضوع من موضوعاتها العقائدية أو الاجتماعية

(٣٣) للمزيد من الاطلاع على المناهج التفسيرية المعاصرة ينظر: دراسات في تفسير النص القرآني، مجموعة من الباحثين: ١/ ٣٥١ -٣٦٨.

(٣٤) ينظر: حوار في العمق من أجل التقريب الحقيقي، صائب عبد الحميد: ٦٢.

(٣٥) ينظر: دراسات في تفسير النص القرآني: ١/ ٢٠٤.

(٣٦) المدرسة القرآنية: ٢٣.

(٣٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣.

(٣٨) ينظر: أطروحة التفسير الموضوعي عند السيد محمد باقر الصدر: ٧٤ -٧٥.

أو الكونية فيطرحها بين يدي القرآن وبالتحاور معه واستنطاقه مستفهماً ومتدبراً حول هذا الموضوع المطروح للبحث، ليتعرف على موقف القرآن الكريم منه، ويكتشف النظرية القرآنية حوله، وذلك بالمقارنة بين النص القرآني وما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات[٣٩]، ((وما تريد هذه الرؤية تأكيده هو عصرية القرآن، وتجدد المعرفة القرآنية وقدرتها الدائمة على المواكبة، لما يوفر لكتاب الله القيمومة على الحياة...))[٤٠].

وقد كان لارتباط الفهم التغييري النهضوي بالتفسير، أن ترك آثاره الحيوية على تفاسير المُصلحين الروَّاد، ومنهم السيد الصدر، فإن البعد التغييري النهضوي ترك آثاره على منهجه في التفسير، وهناك فرق واضح بين تفسير يحمل هم الواقع وينشد التغيير، وبين تفسير آخر يُكتب بغير ذلك المنهج[٤١].

إن المنهج الموضوعي عند السيد الصدر لم يكن مجرد نقلة في منهج التفسير من الجانب النظري، وإنما هو مزاوجة بين طريقة فهم الإسلام على أساسٍ ترابطي، وبين وعي المسلمين وحمل هموم التغيير، فقد نظر إلى التفسير الموضوعي نظرة خاصة تختلف عن المحاولات السابقة والمعروفة باسم (التفسير الموضوعي)، إذ بدأ بتفسيره من الواقع الاجتماعي ثم عاد إلى النص القرآني، لذا يُعد الشهيد الصدر مؤسساً لمنهج جديد حدد معالمه وطبقه بشكل واضح ومحدد[٤٢]، وسعى من خلال التطبيق العملي للتفسير الموضوعي إلى إيجاد الصلة بين القرآن الكريم وحركة الحياة[٤٣].

وينطلق من هذا الهدف القرآني في دراسته السنن التاريخية في القرآن الكريم، ويرى أن ((نقطة البداية في حركة التاريخ... هو تغيير المحتوى

(٣٩) ينظر: المدرسة القرآنية: ٢٩.
(٤٠) المعاصرة القرآنية: ١٩٨.
(٤١) ينظر: دراسات في تفسير النص القرآني: ١/ ٢٠٣.
(٤٢) ينظر: منهج السيد محمد باقر الصدر في فهم القرآن: ٣٨٤ – ٣٨٥.
(٤٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨٧.

الداخلي للإنسان، والذي يعدُّ القاعدة والوضع الاجتماعي هو البناء العلوي، ولا يتغير البناء العلوي إلا طبقاً لتغير القاعدة))[٤٤]، وفي هذا المجال يقول الدكتور طه جابر العلواني: ((ولقد بنى الإسلام كل مناهجه التغييرية وبرامجه على تغيير ما بالنفس، فمن خلال الذات الإنسانية تنطلق عمليات التغيير، وعلى أساس منها يقوم بناؤه، وعلى محور النفس تدور عجلته، بل جعل التغيير الإلهي نتيجة وثمرة لتغيير ما بالنفس الإنسانية))[٤٥].

وفي معرض تحليله الآيات التي استعرضت نماذج من سنن التاريخ، يأتي الشهيد الصدر بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١]، ثم يبين أن هذه الآية الكريمة تتحدث عن سنة من سنن التاريخ؛ هذه السنة التي ربطت القاعدة المتمثلة بالمحتوى الداخلي النفسي الروحي والفكري للإنسان، بالبناء العلوي الخارجي المتمثل بالوضع الاجتماعي، فخارج الإنسان يصنعه داخله، فإذا تغير ما بنفس القوم، تغير وضعهم، وتغيرت علاقاتهم والعلاقات التي تربط بعضهم بالبعض الآخر[٤٦]، وبناءً على ذلك فإن المحتوى الداخلي للإنسان وهو (الفكر والإرادة)، هوالأساس لحركة التاريخ، كما وأنه هو الأساس في التغيير الاجتماعي[٤٧]، ولكن دور القوم ليس دوراً مستقلاً بذاته، بل هو مرتبط وتابع لأمر الله سبحانه وتعالى بالتغيير وإذنه به، ومما يدل على ذلك اسناد التغيير إلى الله تعالى في الآية الكريمة[٤٨]، ((وهكذا تبرز الرؤية الإسلامية في عملية التغيير التي تنطلق من الفرد، ومن بعده المعنوي أساساً))[٤٩].

ثم إن هذا الارتباط بين التغيرين

(٤٤) منهج السيد محمد باقر الصدر في فهم القرآن: ٣٩٦.
(٤٥) الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، الدكتور طه جابر العلواني: ١٧.
(٤٦) ينظر: المدرسة القرآنية: ٦٢.
(٤٧) ينظر: المصدر نفسه: ١١٥ –١١٦.
(٤٨) ينظر: قراءات معاصرة في النص القرآني، مجموعة من المؤلفين: ٢٦٧.
(٤٩) المصدر نفسه: ٢٦٨.

(تغيير المحتوى الداخلي، والتغيير الاجتماعي)، لابد أن يسيران جنباً إلى جنب، لتحقيق الهدف والغاية التي أرادها الإسلام والقرآن الكريم، فإنه من المستبعد أن ينفصل أولهما عن الآخر، وبخلافه يفقد الأول محتواه وقدرته على التغيير، ويبقى البناء الخارجي الاجتماعي بناءً مهزوزاً متداعياً، لذلك يسمي الإسلام عملية بناء المحتوى الداخلي بالجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، وعملية البناء الخارجي بالجهاد الأصغر(٥٠).

الخاتمة:

وفي الختام فإن القرآن الكريم حي لم يمت، وأحكامه تجري في كل زمان ومكان، فهو كتاب الله الخالد على مر الدهور، وهذا هو سر إعجازه، وقد بذل المفسرون المعاصرون مختلف الجهود لاستنطاقه بشأن قضايا الإنسان المعاصرة، فلبى نداءهم في كل ما يتطلبه الواقع وأجاب عن كل ما طرحوه بين يديه، ومن هذه الجهود المباركة ما قام به السيد الصدر، حتى تسنى لنا أن نسمي محاولته بالفهم المعاصر للقرآن الذي انطلق من مقاصد القرآن في تفسير النظريات التي تنفع الناس. والحمد لله رب العالمين.

(٥٠) ينظر: المدرسة القرآنية: ١١٧ –١١٨.

مصادر البحث

القرآن الكريم.

١. الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، الدكتور طه جابر العلواني، قضايا إسلامية معاصرة، ط/ ١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٢. أطروحة التفسير الموضوعي عند السيد محمد باقر الصدر، أحمد عبد الله أبو زيد، ط/ ١، ٢٠١١م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت.

٣. البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، ط/ ٣٠، ٢٠٠٣م، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم.

٤. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن المصطفوي، ط/ ١، ١٤١٧هـ، مؤسسة الطباعةوالنشر، وزارةالثقافةوالإرشادالإسلامي، إيران.

٥. التدبر في القرآن، السيد محمد رضا الشيرازي، ط/ ٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.
٦. تفسير سورة الحديد، السيد محمد باقر الحكيم، ط/ ١، ٢٠٠٦م، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، مطبعة العترة الطاهرة، النجف الأشرف.
٧. حوار في العمق من أجل التقريب الحقيقي، صائب عبد الحميد، ط/ ٢، (د. ت)، الغدير للدراسات والنشر، بيروت –لبنان.
٨. دراسات في تفسير النص القرآني، أبحاث في مناهج التفسير، مجموعة من الباحثين، (الجزء الأول)، ط/ ٢، ٢٠١٠م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت.
٩. دور العقيدة في بناء الإنسان، مركز الرسالة، ط/ ١، ١٤١٨هـ، مركز الرسالة، قم –إيران.
١٠. علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، ط/ ٥، (منقحة ومصححة)، ٢٠١٠م، مطبعة النخيل، النجف الأشرف.
١١. فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية، نجف علي ميرزائي، تر: الدكتورة دلال عباس، ط/ ١، ٢٠٠٨م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت.
١٢. قراءات معاصرة في النص القرآني، مجموعة من المؤلفين، ط/ ١، ٢٠٠٨م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت.
١٣. المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلامية العالمية، مؤسسة الثقلين الثقافية، دمشق، (د. ت).